مجلة المجمع العلمي

تشخيص الطبيعة الصامتة في الشعر الأندلسي
(عصر الموحدين)

الدكتورة بشرى عبد عطية
جامعة بغداد- كلية الزراعة

الملخـــص :

تناول البحث موضوع (تشخيص الطبيعة الصامتة فـــي الـــشعر الأندلسي – عصر الموحدين) وعرض وحلل النمـــاذج الـــشعرية التـــي اختصت به في محورين ؛ تناول الأول : تـــشخيص الطبيعـــة الـــصامتة الطبيعية المتمثلة بالأزهار ، والرياض ، والأنهار ، والـــسماء بـــسحابها ، وبرقها ، وشمسها وقمرها ، إذ جعلها الشاعر الأندلسي مشاركة لـــه فـــي إحساسه ، وأضفى عليها الصفات الإنسانية ، والمشاعر فحولها إلى كـــائن حي يتفاعل مع حالته الشعورية في حزنه وفرحه ، وسلمه وحربه .

أما المحور الثاني فقد خصصته لعرض نمـــاذج مـــن تـــشخيص الشاعر الأندلسي للطبيعة الصامتة الصناعية ؛ وظهرت فيه براعة الشاعر في بث روح الحياة في مفردات جعلها تعايش إحساسه ، وتعبر عن رؤيته كالدولاب ، والسفن ، والشمعة .

وقد ظهر من خلال البحث أن الشاعر الأندلسي استطاع أن يـــرى في الطبيعة الصامتة تناسقا عاما يوحدها معه ، فبرز توافق في تشخيـــصه لها وحالته النفسية ، كما ظهر ارتباط تشخيصه الطبيعة الصامتة بـــصفات المرأة ارتباطا شديدا سواء في الطبيعة الصامتة الطبيعية أو الصناعية .

المقدمـــة :

التشخيص لغةً :

أشتق لفظ التشخيص من (الشخص) ، وهو ((سواد العين إذا رأيته من بعيد ، وكل شيء رأيت جسمانه فقد رأيت شخصه وجمعه الـشخوص والأشخاص))[١]. والشخوص ؛ السير من بلد إلى بلـد ، أي الـذهاب [٢] ، و((شخص الجرح : ورم)) [٣] ، و ((شخص الإنسان ببصره إلى السماء : ارتفع))[٤] ، وشخص الإنسان ببصره سـاعة المـوت : إذا فـتح عينيـه وجعل لايطرف[٥] ، والشخيص الرجل العظيم ، والـشخص الـضخم[٦]، وشخص الشيء إذا عينه ، وشيء مشخص أي معين ، وأشخص الرامـي إذا حاز سهمه الغرض مـن أعـلاه [٧] ، و((الـشخص كـل جـسم لـه ارتفاع وظهور)) .[٨]

❖ التشخيص اصطلاحا :

التشخيص بوصفه مصطلحا نقديا عرف بأنه ((أبـراز الجمـاد أو المجرد من الحياة ، من خلال الصورة بـشكل كـائن متميـز بالـشعور

---

[١] كتاب العين (مادة شخص) .

[٢] ينظر : مختار الصحاح (مادة شخص) .

[٣] كتاب العين (مادة شخص) ..

[٤] م . ن : وتنظر المادة نفسها في لسان العرب ، وتاج العروس .

[٥] ينظر : أساس البلاغة (مادة شخص)

[٦] ينظر : كتاب العين(مادة شخص) .

[٧] ينظر : أساس البلاغة (مادة شخص) .

[٨] لسان العرب (مادة شخص) .

والحركة ، والحياة))[٩] ؛ وتوسع بعضهم فجعله ((نسبة صفات البشر إلى أفكار مجردة أو إلى أشياء تتصف بالحياة))[١٠]

وقد أتخذ الشعراء التشخيص وسيلة من خلالها يتمكنون من ((مخاطبة الطبيعة كأنها شخص تسمع ، وتستجيب في الشعر))[١١] ؛ وبذلك يتفاعلون معها بشكل أكبر لان الطبيعة في الأساس تتسم بمقومات الحياة وان كانت بعيدة عن صفة الشعور، ومن خلاله يضفي الشاعر عليها ما يفتقده فيها .

وأول من شخص الطبيعة في الشعر العربي امرؤ القيس حين خاطب الليل بقوله :

فقلتُ له لما تمطى بصلبه وأردفَ إعجازا وناء بكلكلِ

ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلي بصبح وما الأصباحُ فيك بأمثل[١٢]

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن تشخيص الطبيعة ورد في آيات عدة من القران الكريم منه قوله عز وجل ((والصبح إذا تنفس))[١٣].

❖ **تشخيص الطبيعة في الشعر الأندلسي :**

شعر الطبيعة من أبرز معالم الشعر الأندلسي إذ يندر أن نجد شاعرا عاش في الأندلس لم يسحره جمال طبيعتها ، ويشعر بتميزه في العيش بأرض وصفها الشاعر بالجنة حين قال :

---

[٩] المعجم الادبي ، (مادة تشخيص) .

[١٠] معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (مادة تشخيص) .

[١١] معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (مادة تشخيص) .

[١٢] ديوان امرئ القيس/١٨.

[١٣] التكوير: (١٨) .

يا أهـلَ أندلـــــس لله دركـــم ماءٌ وظلٌ وأشجار وانهـار
ماجنـــةُ الخلدِ إلا في دياركـــم وهذه كنتُ لو خيرّت أختار
لا تحسبوا في غد أن تدخلوا سقرا فليسَ تُدخل بعد الجنةِ النار[١٤]

وانعكس جمال تلك الطبيعة على نتاجه الفني وانعكس على شخصيته ، وأسلوب حياته التي تميزت بالرقة ، والدعة ، والركون إلى حياة الأنس واللذة فشاع شعر وصف الرياض والأزهار ، ومظاهر الحضارة حتى أنهم أحلـوا وصف الطبيعة في مقدمات قصائدهم [١٥] ، كما نظمـوا مقطعـات شـعرية أختصت بوصف الطبيعة ؛ من هنا كثر الحديث عن الطبيعـة فـي الـشعر الأندلسي ؛ ولعمق العلاقة بين الشاعر والطبيعة لم يكتف بمجرد الوصـف ، والتصوير لها بل تطور إلى تشخيص مفرداتها ، واستنطاق مظاهرها متحررا بذلك من دلالات الأشياء كما هي في الواقع ، وجعلها ذات دلالات جديدة[١٦]، فيرى الطبيعة مخلوقا بشريا يتواصل معه ، ويوظف في تجربته التشخيصية عاطفته الشعرية التي تتشبع فيها نفسه بموضوع أو مشاهدة يتأثر بها تـأثرا قويا يدفعه إلى إفراغ ما في نفسه عن طريق تشخيصه للأشياء[١٧] .

ومن منطلق إحساسنا أن تشخيص الطبيعة الصامتة أكثر تجـسيدا لإبداع الشاعر الأندلسي في فنه فأني سأكتفي به ميدانا لبحثي ، وسأتناوله في محورين :

---

[١٤] ديوان ابن خفاجة / ٩٤.

[١٥] ينظر: مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي / ١٩٧ .

[١٦] ينظر: الأسس النفسية للإبداع /٢٩٢.

[١٧] ينظر من بلاغة النظم العربي/٣١.

❖ **أولا : الطبيعة الصامتة الطبيعية :**

لم يترك شعراء الأندلس مظهرا من مظاهر الطبيعة المحيطة بهم إلا وتناولوه بالوصف ؛ فوصفوا الأرض برياضها وأنواع أزهارها ، كما وصفوا السماء بسحابها ، وبرقها ورعدها إلا أن ذلك لم يعن أنهم كانوا ناقلين لتلك الصور نقلا تقليديا كما تنقل المرآة مشهدا من المشاهد ، فالفنان ((يعب من معطيات الطبيعة ، وصورها كما يلقاها معكوسة في عدسة الذات الإنسانية ، ذات الفنان التي تخصها بأجوائها ، واتجاهاتها ، ورؤياها))[١٨] ؛ فكان إضفاء الشاعر الصفات الإنسانية على مفردات الطبيعة تجسيدا للحالة الشعورية التي يحياها ، وانعكاسا لشخصيته ؛ فالطبيعة التي سنعرض تشخيص الشاعر لها هي الطبيعة التي عكسها على مرآة ذاته ، ملونا إياها بألوان خاصة مستمدة من شخصيته ومزاجه[١٩] .

لقد أكثر الشاعر الأندلسي في تشخيصه للطبيعة من ذكر الرياض وأنواع الورود والثمار ، وجعل احتفاءه بالربيع مدخلا سلسا في وصف الطبيعة ، فهو زائر يستحق التحية لما يصحبه من مناظر جميلة ، يقول أبو الربيع :

حيّ الربيع بما وشت أزاهره ... ونظمت من أكاليل على الشجرِ
ودبجت فوق متن الروض من حلل ... ونمقته بألوان من الزهر من نرجس
ساحر الألحاظ ذي غنج ... ومن أقاح نقي الثغر ذي أشر
هذا يضاحك وقع الطل عن شنب ... وذا يلاحظ عطف النهر عن حور

---

[١٨] الفن والأدب ، بحث جمالي /٣٦.

[١٩] ينظر : وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي /١٦.

بما تضوع روض الزهر غب حيا تأكد الشكر للنعمى على البشر
لا يحسب الناس أن الروض فاح لهم طوعا ولكنه يثني على المطر [٢٠]

فالشاعر أضفى على الروض الذي تلون بمقدم الربيع صفات الجمال المادية والمعنوية المعروفة للمرأة في الشعر العربي ، فشخص النرجس بفاتنة ذات ألحاظ ساحرة متغنجة تضاحك الطل يقابلها الأقاح نقية الثغر ذات حور تلحظ النهر ، ويزيد من أفعام الصورة بالحياة تلك الأفعال التي نسبها الشاعر إلى الأزهار (وشت ، ونظمت ، ودبجت ، ونمقت) فهي فضلا عما اتسمت به من رقة ، وطرافة تظهر أسلوب الأندلسي في تشخيص الأزهار ، ويختم الشاعر لوحته بأن جعل للروض لسانا يثني به على المطر كما يثني هو على ممدوحه ، فجعل من ذاته معادلا موضوعيا للروض ، ومن ممدوحه المطر بما يمثله من كرم وعطاء .

وحرص الشاعر بتشخيصه الأزهار على تجسيد محاسنها ، وإسباغ الصفات الحسية التي تتناسب مع شكلها ، ولونها فالطبيعة لها ((سحر يفوق كل سحر ، ولها سلطانها على الإنسان ، وقدرتها على تحرير ذاته من قيود الحياة))[٢١] ؛ فهذا الشاعر أبو الحسن حازم يرى الوردة البيضاء حسناء رغبت في الشرب ، فامتدت لها يد السماء بكأس مائها المزن ، والبرق غدا خادما لحسنها ، فيقول :

ومُبيضّة الأثواب تُدعى بوردة تَقلّ لها الأشباه عند التماسِها

---

[٢٠] ديوان الأمير ابي الربيع /٢١ ، وينظر : ديوان ابن سهل /١٩٩ .
[٢١] الأدب وقيم الحياة المعاصرة / ٤٠٥.

أنافت على ساق لتشرب عندما أشارت لها كف البروق بكأسها[٢٢]

ويبدو أن تشخيص الزهور وتحويلها إلى كائن حي كان اتجاها غلب على شعراء الأندلس ، ومن ذلك نجد تشخيص ابن الابار للخيري ، وعرضه لصفاته التي أثرت في نفسه ، ماجعله يصفه بالأديب ، بقوله :

لكَ الخيرُ أمتعتني بخيري روضة لأنفاسه عند الهجوع هبوبُ
أليسَ أديبُ النور يجعل ليله نهارا فيذكو تحته ويطيبُ
ويطوي مع الأصباح منشور نشره كما بان عن ربع المُحب حبيبُ
أهيم به عن نسبة أدبية ولا غرو أن يهوى الأديب أديبُ[٢٣]

ويعتمد التشخيص على الخيال الذي يرتبط بالعاطفة ، وهذا الارتباط هو الذي يوفر للشاعر المقدرة على بث روح الحياة في الطبيعة المحيطة به ، فالخيال هو((عملية إسباغ وصبغ ، إذ يسبغ الأديب على المشهد مشاعره وتصوراته الذهنية ، ويصبغه بلون نفسه ، وتتحد به في مساق انفعاله اتحادا يتيه به في رحلة وهمية تشبه الحلم))[٢٤] ؛ لكنه حلم يشخص فيه الشاعر المفردات ، فابن سهل منح السوسن يدا يصافح بها الورد ، وثغرا يقبل منه الخد الخجول بقوله :

الأرضُ قد لبست رداءً أخضرا والطلّ ينثر في رباها جوهرا
هاجت فخلت الزهر كافورا بها وحسبت فيها الترب مسكا أذفرا

---

[٢٢] اختصار القدح/٢١.

[٢٣] ديوان ابن الابار /٧٠ .

[٢٤] الكامل في النقد الأدبي /١٢٥.

وكأن سوسنها يصافح وردهـا ثغرٌ يقبل منه خدا أحمـــرا[٢٥]

نلاحظ أن الشاعر لم يكتف بتشخيص الطبيعة ،بل أمتـد إبداعـه ليبرز انعكاس آثار هذا التشخيص على النفس الإنسانية جاعلا مـن ذاتـه الأنموذج الذي تظهر عليه آثاره ، فالشاعر أشار إلى أكثر من حاسة مـن الحواس تلتقط انعكاسات التشخيص ، فأبرز دور حاسة الشم مـن خـلال الألفاظ (كافور ، وأذفر) فضلا عن حاسة البصر.

ويبدو أن الشعراء اختاروا التشخيص ليبـرزوا عمـق علاقـتهم بالطبيعة لان ((تدفق العاطفة إلى الخارج في عالم الطبيعة ، وتعمقها فـي عقل الإنسان هو كشف عن الروابط المعقدة بين الإنسان والطبيعـة))[٢٦] ، وهذا ما انعكس في قول ابن الابار :

أسرى إلى النسرين يُرضعه الندى ويهب طرف النرجس الوسنانا
وحبا العـرار بصفـرة ذهبيـة راعـت فتـاة بكـمها فتانـا
ودقّ تولـد عنـه وقد الربـــي لأزاهر طلعـت بـها شهبانـا
ياحبذا خضـل البهـار منافحـا بأريـجه الخيـري والريحانـا
والآس يلتثم البنفســج عارضـــا والياسمين يغازل السوسانـا[٢٧]

أظهر الشاعر عمق ارتباطه بالطبيعة فألفاظ (يرضـعه النـدى ، والآس يلتثم البنفسج ، والياسمين يغازل الريحان) شـخص الـشاعر مـن

---

[٢٥] ديوان ابن سهل/١٦٣.

[٢٦] الصورة الشعرية / ٧٠-٧١ .

[٢٧] ديوان ابن الابار/٣١٣ .

خلالها الطبيعة بمجتمع محبين تسوده أجواء الحب ، وهو أسلوب تميز به الأندلسي .

أما الشاعر صفوان بن إدريس فقد جعل مفردات الطبيعة شخصيات أجاد في رسمها والتعبير عن نفسه المحبة من خلال وصف الحركات ، وإضفاء عنصر الحوار في أجواء من الحب ، والتفاعل بين أطراف الصورة ، بقوله :

وبدت ثغور الياسمين فقبلت ... عني عذار الآسة الميساء
وكأنما جاء النسيم مبشرا ... للروض يخبره بطول بقاء
فكساه خلعة طيبة ورمى له ... بدراهم الأزهار رمي سخاء
وأفترّ ثغر الأقحوان بما رأى ... طربا وقهقه منه جري الماء [٢٨]

وشيوع مجالس الشرب في الأندلس أثرى ظاهرة التشخيص لمفردات الطبيعة التي لها صلة بمجالس الندامى فالشاعر عد تلك المفردات شريكة له في مجلسه ، وأضفى عليها ما منحها روح الحياة ، يقول أبو القاسم احمد بن يامن :

رنت نحوكم مُقلُ النرجس ... وأمست تُشير إلى الاكؤاس
وقد حّد الآس آذانه ... ليسمع ما دار في المجلس
واخجل تفاحها وآغتدى ... يروم الكلام ولم ينبس
وقد باح أترُجَها بالهوى ... وظاهره بالضنى مُكتسى
وماس الترنجان في حُلة ... تروق العيون ولم يَقبس

---

[٢٨] من ديوان الشعر العربي (ديوان صفوان بن إدريس)/١٦٢-١٦٣، وينظر: م .ن/٢٠٥.

وزنبوعها بعضه مثل مـــا نظرت إلى الذهب الأملـــس
وقد ضحكت بيننـــا اكؤس فوجـــه الدجـــنة لم يعبـــس
فيا ضارب العُود حثّ الغنا ء ويا ساقي الكأس لا تحبس [٢٩]

برز إبداع الشاعر في توالي الصفات التشخيصية التي حشدها في أبياته ، وهو يصف مجلس انس وطرب شاركته فيه الطبيعة ، فتفاعل معها وجدانه ، وألبسها ثوب الحياة ، ولم يغادر عنصرا إلا وشخصه ، فالنرجس عيناه ترنو الكؤوس بنظرات لهفة وتشوق ، والآس ينصت إلـــى أحاديـــث المجلس تلك الأحاديث التي أخجلت التفاح وعجز عن مجاراتها ، ولأنـــس المجلس اخذ الترنجان يميس طربا في روضة تبهج القلب والعـــين حتـــى ضحكت لها الكؤوس ، وتبسم الظلام ؛ كل ذلك تعبيرا عن ســـروره،الذي دفعه للإبداع في تشخيص الطبيعة بهيئة المرأة الجميلة فجعل لهـــا مقـــل ، وخجل عند السماع ، وحياء عند الكلام ، وذلك إظهارا منه لارتباط جمال الطبيعة لديه بجمال المرأة ما دعاه إلى تشخيص الطبيعة بصفاتها.

وللحالة الشعورية التي يعيشها الـــشاعر لحظـــة إبداعـــه أثرهـــا في نظرته للطبيعة لأن مهمة الشعر هـــي التعبيـــر عـــن ((العواطـــف ، والانفعالات ، وإثارة المشاعر والتأثير في السلوك الإنساني)) [٣٠] ؛ لـــذا فقد تغلب ألفاظ من حقل دلالي معين على لغة الشاعر ، فهذا أبـــو الوليـــد الشاطبي سكن الحزن نفسه فحاور نديمه مشخصا الطبيعة بأوصاف كلهـــا حزن وشجن فيقول :

---

[٢٩] اختصار القدح / ٥٤ .

[٣٠] دور الكلمة في اللغة / ٩٢ .

هات المُدام وقد ناح الحمام علـــى هذا الظلام وجيش الصبح في الطلبِ
لا استفيقُ من اللذات آونـــــة ما اهتزّت القضب في مخضرة العذب
والكأس حلتها حمراء مذهبـــة لكـــن أزرتهـــا من لؤلؤ الحُجـــبِ
إن تهت بالشمس يا أفق السماء فلي شمسان : وجه نديمـي وابنـة العنبِ
قم سقنيها وثغر الصبح مبتســم والليل تبكيه عين الـدر بالشهـــبِ
والسحب قد لبست سود الثياب وقد قامت لترثيه الأطيار في القضبِ. [٣١]

في حين نجد الشاعر مرج الكحل يشخص الطبيعة على وفق حالته الشعورية التي عايشته الطبيعة فيها ، فيقول :

طَفلَ المساء وللنسيم تضـــوّع والأُنس ينظم شملنا ويجمـــــعُ
والزهر يضحك من بكاء غمامة ريعت لشيم سيوف برق تلمـــعُ
والنهر من طرب يصفق موجه والغصن يرقص والحمامةُ تسجعُ[٣٢]

نلاحظ أن الشاعر عكس حالة الفرح والسرور التي تملكته علـــى تشخيصه الطبيعة ، فالزهر الذي يضحك أكثر تأثيرا من بكاء الغمامـــة ، والنهر يصفق بأيديه – الموج – فرحا ، ويتفاعل معه الغـــصن بـــالرقص والحمامة بالســـجع ؛ وفي استحضار الشاعر عنصر الحركة ، والتفاعـــل في تشخيصه دليل ((وعي جمالي ، وفكري يقود الصورة الشعرية إلـــى مزيد من الإبداع اللغوي – الجمالي– في أطار أسلوبية مغايرة موســـومة بالإدهاش ، والطرافة ، وبث روح الحياة في الجماد)) . [٣٣]

---

[٣١] اختصار القدح / ٢٠٨ .

[٣٢] من ديوان الشعر العربي (ديوان مرج الكحل) /٢٧٠-٢٧١.

[٣٣] الاستعارة في التراث البلاغي والنقدي عند العرب/١٢٠.

وكان للحياة السياسية أثرها في تشخيص شعراء الأندلس للطبيعة إذ شخصوها متأثرين بالظروف السياسية ، والعسكرية التي كانت الأندلس تمر بها كاشفين بذلك عن قدرتهم على توظيف التشخيص بما يظهر الطبيعة بشكل جديد ، فهي تتأثر ، ويتفاعل معها الشاعر حين يشخص مفرداتها ، يقول أبو الربيع :

بين الرياض وبين الجو معتـــرك بيض من البرق أو سمر من السمرِ
إن أوترت قوسها كف السماء رمت نبلا من المزن في درع من الغدرِ
فتح الشقائق جراحاهـا ومغنمهـا وشي الربيع وقتلاها جنى الثمـرِ
فأعجب لحرب سجال لم تثر ضررا نفـع المحارب فيها غاية الظفـر
من أجل هـذا إذا ذهبت طلائعهـا تـدرع النهر واهتزت قنا الشجر[٣٤]

فالشاعر شخص مفردات الطبيعة المحيطة به لا كما تعودت عينه أن يراها ، وكما هي في الواقع المادي المحسوس أو ما اعتاد عليه من إضفاء الحس الإنساني الرقيق في تشخيصه ، وإنما كان للحالة النفسية التي يعانيها جراء الاضطراب السياسي أثره في استعماله لألفاظ (معترك ، والسمر ، والقوس ، والنبل ، والدرع ، والجراح ، والقتلى ، والحرب ، والمحارب) فدل على شدة ارتباط الشاعر بالطبيعة حين أشركها في حالته الشعورية ، وتغيرت صورتها في عينيه ، فجو المطر الذي يبهج النفس ، ويبعث الحياة غدا معتركا ؛ والروض ساحة حرب حافلة بالأسلحة ، وشقائق النعمان بروعة منظرها أبصرها جراحا ، والثمر الذي تزهو به الأغصان شخصه بالجند القتلى ؛ كل ذلك يظهر أن الشاعر عكس

---

[٣٤] ديوان الأمير أبي الربيع/١٤٠ ، وينظر : م .ن /٧٠.

انفعالاته من العالم الخارجي في عمليته التشخيصية ، فالشعر ((يحيي هذه السمة المجازية ويجعلنا على وعي بها)) [٣٥] ، وهذا ما جسدته مجازات ابن الابار بقوله :

والريحُ تركضُ سبقا من خيلها ... في روضة رحبت لها ميدانا
هَوجاء تستشري فيلقح مَدها ... هيجاء تنتج حبرة وأمانا
حربا عهدت أزاهرا ومزاهرا ... أوزارها لا صارما وسنانا[٣٦]

نجد أن الشاعر تأثر في تشخيصه للطبيعة بحالة الحرب الدائمة التي كان يحياها الأندلسيون في عصره ، وتمثل هذا التأثير بألفاظ (الخيل ، والميدان ، والهيجاء ، والحرب ، وصارما ، وسنانا) التي غلبت في قوة دلالتها وإيحاءاتها تلك التي تشير إلى الطبيعة الجميلة كـ(الريح ، والروضة ، وحبرة ، ومزاهر) .

وكان تشخيص الطبيعة مجالا للشاعر يعرض من خلاله تجاربه الحياتية ، ويشير إلى علاقة حميمة معها ، فالطبيعة تجسدت في تشخيصها شريكة حياة للشاعر متلائمة مع مزاجه وإحساسه ، يقول مرج الكحل :

نَهرٌ يهيم بحسنه مَنْ لم يهم ... ويَجيد فيه الشعر من لم يَشعُر
ما أصفرّ وجه الشمس عند غروبها ... إلا لفرقة حُسن ذاك المنظر[٣٧]

---

[٣٥] نظرية الأدب/٢٩.

[٣٦] ديوان ابن الابار /٣١٣ .

[٣٧] من ديوان الشعر العربي (ديوان مرج الكحل) / ٢٦٧ ، وينظر ؛ أبن مرج الكحل حياته وشعره/٥٨.

منح الشاعر الشمس من رقة الإحساس ، وولع بمنظر عشقه ما جعل اصفرارها عند الغياب علة فراق ، في حين نجد الرصافي البلنسي كان أكثر توفيقا في تشخيصه للشمس حين مثلها بالمحب المشتاق ، بقوله :

وعشي رائق منظره ... قد قصرناه على صرف الشمول
وكأن الشمسَ في أثنائه ... ألصقت بالأرض خداً للنزول[٣٨]

ويمضي في تشخيصه ظواهر الطبيعة فيجعل من الليل إنسانا تمتع بزهو المنظر حتى شرب ضوء النهار بقوله :

والصّبا ترفع أذيال الربى ... ومحيا الجو كالسيف الصقيل
حبّذا منزلنا مغتبقا ... حيثُ لا ينظرنا غير الهديل
طائر شاد وغصن منثن ... والدجى يشرب صهباءَ الأصيل[٣٩]

ومثلما شخص شعراء الأندلس الرياض والأزهار ، والثمار فهم كذلك التفتوا إلى مظاهر الطبيعة كالمطر ، والشمس ، والقمر ، الليل والنهار ، ليشخصوها بصفات إنسانية تتناسب مع إيحائها في نفس الشاعر ويبعثوا فيها الحياة ، فالمطر الذي يبعث الحياة في الأرض ألتفت إليه الشاعر بتشخيص ما يصحبه من مظاهر وما ينتجه من حياة ، فالبرق يثير في نفسه شوقا لأحاديث الأحبة فيلتفت إليه ويطالبه بان يكون محدثه عنهم ، يقول :

---

[٣٨] ديوان الرصافي البلنسي / ١٢٣ .
[٣٩] م .ن /١٢٣.

يابرقُ طارحني أحاديثهـــــم فهات تطويلا وهاك اختصارا[٤٠]

أما الشاعر صفوان بن إدريس فقد جعل البرق رسولا يبلغ أحبتـه شوقه لهم ، وينوب عنه بالبكاء ، ويجزيه عن هذه الخدمة الجليلة بالـدعاء له بالأجر ، فيقول :

لعل رسولَ البرق يغتنم الأجرا فينثر عني ماء عبرته نثرا[٤١]

وارتبط بالمطر تشخيص الشاعر للروض بالضحك ، وللجو بالبكاء والعبوس ، يقول أبو الربيع :

الجو يبكي بدموع سجـــام والروض يبدي عند ذاك ابتسام[٤٢]

والشاعر علي بن موسى في تشخيصه للبرق وجو المطر استحضر جمال المرأة ، بقوله :

أدر كؤوسك أن الأفق في عرس وحسبنا أنت ترعـى حسنك المقـل

البرق كف خضيب والحيا درر والأفق يجلى وطرف الصبح مكتحل[٤٣]

ومن ملامح تطور العملية التشخيصية توظيف تشخيص الطبيعة في شعر الرثاء ، وإضفاء الصفات الإنسانية من حزن ، وأسى عليها تعبيـرا عن حزن الشاعر كما في قول ابن سهل :

وخلفت ثكلى لا تكف جفونهـــا بكاءً ولا يَندى جوانحها غمـــا

تنوحُ لها الأطيار في القضب رقة ويذري عليها المزنُ أدمعه رحما

---

[٤٠] آثار أبي زيد الفازازي/١٢٣،وينظر:م . ن/١٠٣،١٢٤.

[٤١] من ديوان الشعر العربي (ديوان صفوان بن إدريس) / ١٩٠.

[٤٢] ديوان الأمير أبي الربيع / ٥٧ ، وينظر : م . ن / ١٠٥.

[٤٣] المغرب في حلى المغرب :ج ٢ / ص ١٧٨.

ولاحَ أصيلُ اليوم بعدك شاحبـا وريح الصّبا معتلة تشتكي السقما[٤٤]

فأشرك الشاعر الطبيعة في حالة الحزن على فقيده ، فالطير تنوح مع الزوجة الثكلى ، والمزن ينزل دمعه رقة لحزنها علـى فقيـد اعتلـت الريح ، وشحب الأصيل لفراقه ، فغـدت الطبيعـة أحـد أفـراد العائلـة المفجوعة ، ويتكرر تشخيص الشعراء للسماء بالعيون الباكية وهم ينعـون أحبتهم ، يقول أبو الربيع :

نعى المجد ناع فأبكـى السما وأسبل دمعا لها عندسـا*[٤٥]

نعى أطيب الناس جرثومـة وخير ملوك الدنا منتمـى

نعى قمر السعد بـدر العـلا فعاد النهار لنا مظلمـا

ولـو مـد لـيلا بـه صوته رأيت الدجى ينثر الأنجما[٤٦]

ثانيا : الطبيعة الصامتة الصناعية :

شخص الشاعر الأندلسي مفردات الحضارة التـي أبـدعتها يـد الإنسان، وغدت جزءً من حياته ، فتفاعل معها وشخصها ، ومنها الدولاب إذ كان رفيق جلسات الأنس ،ونديم السهر من هنا شخص الشاعر صوته ، وهيأته ، وحركاته بما أتفق وحالته الشعورية التي عاشها بصحبته ، يقول ابن الابار:

ياحبـذا بحديقـة دولاب سكنت إلى حركاته الألبـاب

غنى ولم يَطرب وسقى وهو لم يشرب ومنه اللحن والأكواب

---

[٤٤] ديوان ابن سهل الأندلسي/١٩١.

[٤٥] ديوان الأمير أبي الربيع /٤٢.

[٤٦] عندما : لون أحمر .

لويدعي لطف الهواء أو الهوى ما كنت في تصديقه ترتاب
للعود محتده ومل ضلوعه لإغاثة الشجر اللهيف رياب
وكأنه مما ترنم ماجن وكأنه مما بكى أواب [٤٧]

فالشاعر أغنى تشخيصه الدولاب بعنصر الحركة والصوت والتفاعل مع محيطه ، وجعله إنسانا يغني ويسقي ضيوفه مشبها إياه بالماجن في حركاته ، والزاهد بصوته الحزين ، وبذلك يظهر أن للحالة النفسية التي يعيشها الشاعر في أثناء نظمه الشعر أثرا كبيرا في توجيه استعاراته ؛ لأنه حين يعمد إلى تشخيص شيء ما فانه بذلك يمارس فعلا أساسه نمط معين من التوتر النفسي المصاحب لمجموعة من الصور والتخيلات التي ينظمها[٤٨] ، وذلك ما نجده في تشخيص الرصافي البلنسي للدولاب ، بقوله:

وذَي حنين يكاد شَجوا يختلسُ الأنفسَ اختلاسا
إذا غدا للرياضِ جارا قال لها المحلُ لا مساسا
تَبسم الزهرُ حين يبكي بادمع ما رأين باسا
من كُل جفن يسل سَيفا صارَ لها غِمده رَئاسَا[٤٩]

شخص الشاعر الدولاب بصفة الحنين وهو بذلك منحه الإنسانية ، وعمق وصفه حين جعل منه جارا للرياض ، وشخص ما يحيط به فالزهر يبتسم من بكائه ، وروح الحياة تبرز من خلال الصور المتقابلة .

---

[٤٧] ديوان ابن الابار / ٦٥ ، وينظر : م . ن/٦٢ .
[٤٨] ينظر : نظريات معاصرة في تفسير الأدب ، النظرية والتطبيق / ١١٤.
[٤٩] ديوان الرصافي البلنسي / ١٠٢.

ويتكرر تشخيص الشاعر الأندلسي للدولاب بالعاشق الذي ينسكب دمعه شوقا لمحبوبه ، لكنه دمع متميز فهو يسلي من حولـــه ، ولا ينفـــد ، يقول أبو زيد عبد الرحمن النجاري :

وباكية تبكي فيسلي بكاءهـــــا وما كل من يبكي إذا بكى يسلـــي
فيا عجبا ينهل واكف دمعهـــا سريعا وإن كانت تدور على رسلِ
تسلسل منها الماء من كل جانب فحيلتها من عبرة الصب تستملي[٥٠]

وإذا كان الشعراء قد وقفوا عند تشخيص صوت الدولاب ، وكـــان أصدق توصيف له ذلك الذي التفتوا فيه إلى صوته الحزين ، فأن منهم من تجاوز الصوت إلى الهيئة والحركة ، ومن ثم الصوت وعكس ذلك كله في تشخيصه الدولاب بحنين يذكرنا في تعبيراته بحنين الأم ، يقول أبو عبد الله بن الحسين :

ومحنية الأصلاب تحنو على الثرى وتسقي بنات الترب دمعَ الترائب
وأطربها رقص الغصون وذابـــلا فدارت بأمثال السيوف القواضبِ
وما خلتها تشكو بتحنانهـــا الصـــدى ومـــا بين متنيها اطّراد المذانبِ
فخُذ من مجاريها ودهمة لونهـــــا بياض العطايا في سواد المطالبِ[٥١]

والسفن من مفردات الطبيعة الصناعية التي تعايش معها الأندلسي وشخصت في شعره بصفات إنسانية جعلتها في عينه ابنة المـــاء ، يقـــول ابن الابار:

---

[٥٠] زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر / ٣٩.

[٥١] المغرب في حلى المغرب : ج ٢ / ١٦٩ .

بنات الماءِ حاملة كُمـــــاة بأهل النار سطوتها العياء[٥٢]

أما الرصافي البلنسي فكان تشخيصه السفينة مستوحىً من صفات المرأة ، فأشرعتها تراءت له غدائر مسدولة ومضفورة وهي تغري الميـــاه بحركاتها حين تداعبا الرياح ومن ثم شخـــصها بالعـــذراء فـــي جمالهـــا وبهائها ، يقول :

ذو المنشآتِ الجواري في أجرتها شـــكلُ الغدائر في سدل وتضفير
أغرى المياه وأنفاس الرياح بهـــا ما في سجاياها من لين وتعطيـــر
من كل عـــذراء في تـــرائبهـــا ردعان من عنبر ورد وكافور [٥٣]

والشاعر عمد إلى تشخيص ما يحيط به من مفـــردات ويستـــشعر الحياة فيها ومن ثم يشخصها على وفق إحساسه وما تثيره في نفسه ، مـــن هنا كانت الشمعة في عين ابـــن الابـــار تعـــاني الآم المحـــب وتتـــصف بصفاته ، يقول

وصفراء في لون المحب وحاله تقوم بأنس النفس في وحشة الدجى
إذا اضطرمت نيرانهـــا انهل دمعهـــا فلا فرق إلا أنها تحمد الشجا[٥٤]

ويبدو أن الشمع في الأندلس كان باللون الأصفر ، وذلك يظهر من تكرار الشعراء لتشخيص الشمعة بالعلة ، والنحول لكن ذلك لم يمنع الشاعر من رؤيتها قوية تحارب جيوش الظلام ، يقول أبـــو عثمـــان ســـعيد بـــن حكم القرشي :

---

[٥٢] ديوان ابن الابار / ٤٨ ، وينظر : م . ن / ٤٢ .
[٥٣] ديوان الرصافي البلنسي / ٨١ .
[٥٤] ديوان ابن الابار / ١٠٩.

وصفراء من غير ما علـــة لها أدمـــع أبدا سائلـــه
تُطيل الوقوف على واحـــد مدى ليلها فترى ناحلـــه
تزيد على الشمس في نورها إذا ما غدت للدجى واصله
تُحارب دأبا جـيوش الظلام فتبصر مقتولة قاتلـــه[٥٥]

أما الشاعر أبو القاسم فقد كان تشخيصه الشمعة أنموذجا لأسـلوب الشاعر الأندلسي في رقة أوصافه ، وحسية تعبيراته إذ شخصها بـالمرأة المحبة التي نطقت بآلامها ، وشكت تغير حالها ، وهي تجمع شمل الأحبة وتشكو تغير حالها ، بقوله :

عُريانةً وثيابها في جوفهـــا لكنها عنـد الصباح تُطلـقُ
تفني الدياجي وهي فانية بهـا وبمائها أيـان تُشرِق تَشْرَقُ
ما حقها إذا جمعت شمل المنى أن يغتدى مثـل لها يتفـرقُ
قامت خطيبة تشتكي بخطوبها وبنقلة الحالات أمست تنطق[٥٦]

وفي الختام نجد أن الشاعر الأندلسي قد اندمج مع الطبيعة بـشكل كامل حتى غدت في عينه كائنا حيا لـذا بـرع فـي إضـفاء الـصفات الإنسانية عليها .

النتائـــج

١) استطاع الشاعر الأندلسي أن يرى في الطبيعة تناسـقا عامـا يوحـدها مـع الإنسان ، فيخلق وفاقا بين عقل الشاعر وروحه ، وحالته النفسية.

---

(٥٥) اختصار القدح/٣٢.

(٥٦) م .ن /٥٤.

٢) قدرة الشاعر على استعارة الكلمات من حقل دلالي إلى آخر وهو ما اتضح في تشخيص الشاعر الأندلسي الطبيعة ، فهو يستعير من مفردات المعارك ليصف منظرا كما يوظف الفاظا تختص بجمال المرأة في تشخيصه للطبيعة الصامتة الطبيعية والصناعية.

٣) كان من ملامح تطور العملية التشخيصية أن وظف الشاعر تشخيص الطبيعة الصامتة في شعر الرثاء ليعبر من خلال استنطاقها عن شدة حزنه.

٤) برز تأثير الحالة الشعورية التي يمر بها الشاعر في طبيعة الصفات التي يشخص بها الطبيعة ، فتارة كانت ألفاظه تعبر عن عواطف الحب وتجسد مجتمع المحبين ، وتارة أخرى كان لأجواء الاضطراب السياسي والمعارك وجود بارز في تشخيصه للطبيعة.

المصـــــادر

القرآن الكريم

١- آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي (٦٢٧هـ) نصوص أدبية من القرن الهجري السابع ، جمعها بعض تلامذته في حياته ، تقديم وتحقيق ، عبد الحميد عبد الله الهرامة ، دار قتيبة للطباعة والنشر – دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٩١م .

٢- اختصار القدح المحلى في التاريخ المعلى ، لابن سعيد أبي الحسن علي بن موسى (٦١٠- ٦٨٥هـ) أختصره ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل ، تحقيق ، إبراهيم الابياري ، دار الكتاب اللبناني – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٠م .

٣- الأدب وقيم الحياة المعاصرة ، الدكتور محمد زكي العشماوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – فرع الإسكندرية – مطابع عابدين – إسكندرية ، ط ٢،١٩٧٤ م .

٤- الاستعارة في التراث البلاغي والنقدي عند العرب ، فاضل عبود خميس التميمي ، أطروحة دكتوراه مطبوعة بالآلة الكاتبة ، كلية التربية – الجامعة المستنصرية ١٩٩٥م .

٥- أساس البلاغة ، الإمام جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) تحقيق نعبد الرحيم محمود ، عرف به ، أمين الخولي- طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥٣م .

٦- الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة ، الدكتور مصطفى سويف ، دار المعارف بمصر،ط ٢ ،١٩٥٩م.

٧- تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت – لبنان ، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر ، ط ١،١٣٠٦هـ .

٨- دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمه وقدم له وعلق عليه ، الدكتور كمال محمد بشر ، الناشر ، مكتبة الشباب – مصر ، ط٢،١٩٧٢.

٩- ديوان ابن خفاجة ، شرح ، دكتور يوسف شكري فرحات ، دار الجيل – بيروت (د.ت) .

١٠- ديوان الأمير أبي الربيع سليمان ألموحدي (ت ٦٠٤هـ) تحقيق ، محمد بن تاويت الطنجي ، ومحمد بن العباس القباج ، واسعد أعراب ، ومحمد بن تاويت التطواني ، بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي -- المغرب- (د.ت) .

١١- ديوان ابن الابار (ت ٦٥٨هـ) ، تحقيق ، عبد السلام الهراس ، الدار التونسية للنشر- ١٩٨٥م.

١٢- ديوان ابن سهل الأندلسي (ت٦٤٣هـ) ، قدم له الدكتور إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ١٩٨٠م.

١٣- ديوان امرىء القيس (ت ٥٤٠م) ، تحقيق ، محمد أبي الفضل إبراهيم ، ذخائر العرب ، دار المعارف – مصر ، ط ٣ ، ١٩٦٩م .
١٤- ديوان الرصافي البلنسي ، عبد الله بن غالب (ت٥٧٢هـ) ، جمعه وقدم له ، د.إحسان عباس ، دار الثقافة – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٦٠م .
١٥- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي (ت٥٩٨هـ) ، تحقيق ، عبد القادر مقداد ، دار الرائد العربي ، بيروت ١٩٨٣م.
١٦- الصورة الشعرية والبلاغة ، الدكتور صبحي البستاني ، مجلة آفاق عربية ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ، ع ١٢، ١٩٨٧م .
١٧- الفن والأدب بحث جمالي في الأنواع والمدارس الادبية والفنية ، الدكتور نيشال عاصي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط ٢ ،١٩٧٠م .
١٨- كتاب العين ، أبو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ) تحقيق ، الدكتور مهدي المخزومي ، والدكتور إبراهيم السامرائي ، الجمهورية العراقية ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد للنشر ، طباعة شركة المطابع النموذجية ، عمان – الأردن ، ١٩٨٢ م .
١٩- الكامل في النقد الأدبي ، كمال أبو مصلح ، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر ، بيروت ط٥ ،،١٩٨٣م .
٢٠- لسان العرب ، العلامة ابن منظور(ت٧١١هـ) ، معجم لغوي علمي ، قدم له ، العلامة الشيخ عبد الله العلايلي ، إعداد وتصنيف ، يوسف خياط ، ونديم مرعشلي ، دار لسان العرب ، بيروت (د.ت).
٢١- مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي (ت٦٦٦هـ) ، الناشر ، دار الرسالة الكويت ١٩٨٣م .

٢٢- مرج الكحل حياته وشعره ، د.فوزي عيسى ، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية (د.ت) .
٢٣- المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، ط ١،١٩٧٩، م .
٢٤- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه ، كامل المهندس ، طبع في لبنان ١٩٧٩م.
٢٥- المغرب في حلى المغرب ، حققه وعلق عليه ، شوقي ضيف ، دار المعارف – مصر ، ط ٤ ، ١٩٩٥.
٢٦- مقدمة القصيدة العربية في الشعر الأندلسي (دراسة موضوعية فنية) د.هدى شوكت بهنام ، دار الشؤون الثقافية – بغداد ٢٠٠٠م .
٢٧- من بلاغة النظم العربي ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، الدكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، عالم الكتب – بيروت ، ط٢،١٩٨٤م .
٢٨- من ديوان الشعر العربي (ديوان صفوان التجيبي ، وديوان ابن مرج الكحل) نجمع وتحقيق ودراسة ، دكتور محمد سالمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ٢٠٠٧م .
٢٩- نظرية الأدب ، أوستين وارين ورينيه ويلك ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، ترجمة محيي الدين صبحي ، مراجعة الدكتور حسام الخطيب ، ط٣،١٩٦٢م .
٣٠- نظريات معاصرة في تفسير الأدب ، النظرية والتطبيق ، الدكتور سمير سعد حجازي ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط١،٢٠٠١م .
٣١- وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي ، محاضرات ألقاها الدكتور محمد النويهي على طلبة قسم الدراسات الأدبية ، مطبعة الرسالة ، ١٩٦٧م .